مرافعة صبراتة

أغرم بالعلوم والمعارف، فبدد ثروات عائلته الثرية في تنقلاته وتجواله تلميذاً وأستاذاً وخطيباً من موطنه "مَدُورَا حتى أثينا" مروراً بقرطاج وطرابلس، جال لوسيوس أبوليوس في العالم وسار في آفاقه صانعاً لنفسه مجدا أدبياً وعلمياً، وتاركاً لمن خلفه قصة مثيرة للإعجاب عن رجل سار خلف المعرفة فرفعت قدره وخلدت اسمه.

يقول المؤرخ والكاتب الأمريكي "ويل ديورانت" مؤلف الموسوعة الشهيرة "قصة الحضارة" :-

"ولكن الأدب الأفريقي لم تكن له الزعامة على آداب العالم إلا أيام مجده في عهد المسيحية. وكان لوسيوس أبوليوس شخصية غريبة جديرة بالتصوير، أكثر من غيره، وكان مولده في مدورا Madaura من أسرة عريقة النسب (124م).

وقد درس فيها وفي قرطاجنة وأثينا، وبدد ثروة كبيرة ورثها عن أسرته، وأخذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دين إلى دين، وانضم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية ومارس السحر وألف كتباً كثيرةً في موضوعات تختلف من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان، وألقى محاضرات في الفلسفة والدين في روما وغيرها من المُدن.

ثم عاد إلى أفريقيا وتزوج في طرابلس من سيدة تكبره وتفوقه في الثراء، فلما فعل هذا رفع أصدقائها وورثتها المنتظرون الأمر إلى القضاء مطالبين بإلغاء الزواج، واتهموه بأنه حصل على موافقة السيدة عليه بفنون السحر.
ودافع الرجل عن نفسه أمام المحكمة بخطبة وصلت إلينا بعد أن أدخل عليها بعد أيامه كثيراً من الصقل والتنميق، وكانت نتيجتها أن كسب القضية والزوجة، ولكن الناس أصروا على الاعتقاد بأنه ساحر.

وقضى الرجل بقية حياته يمارس صناعتي المحاماة والطب، وكتابة الرسائل والخطب، ولكن معظم ما كتب كان في الموضوعات العلمية والطبيعية.
وقد أقامت له مدينته نصباً تذكارياً نقشت عليه باللاتينية العبارة الآتية:

> بقيت مغامراته وخطبه كما كتبه محفوظة ليومنا هذا، من اشهرها وأهمها "مرافعة صبراتة" الشهيرة، جيء به متهما إلى المحكمة، فأبهر الجميع بفصاحة وبلاغة وقوة حجة وتبحر في الفلسفة والعلوم،

الفيلسوف الأفلاطوني، ولو أنه استطاع العودة إلى الحياة لساءه ألا يذكره الناس إلا بكتابه الحمار الذهبي."

وزوجته هذه كانت تسمى (إميليا بودنتيلا Emelia Pudentilla) وهي أرملة ثرية من أويا "طرابلس" كانت ترفض الزواج لفترة طويلة من الزمن، لكن عندما طلبها لوسيوس وافقت على الزواج منه، وبدا زواجهما سعيداً أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن تعكر نتيجة المؤامرات التي بدأ أقارب إميليا يدبرونها لأن مطامعهم في ثروتها قد خابت بسبب هذا الزواج.

ولذلك فقد شنوا حملة تشهير ضد أبوليوس انتهت باتهامه رسمياً بأنه إنما حمل إميليا على الموافقة على الزواج منه بوساطة السحر.

وبموجب تلك التهمة قدم أبوليس للمحاكمة في صبراته حيث وقف يدافع عن نفسه أمام رئيس المحكمة (كلوديوس مكسيموس Claudius Maximus) والخطبة التي ألقاها أبوليس في محكمة صبراته في هذه المناسبة، تجلى ذكاؤه وبلاغته بشكل أدهش مستمعيه من أبناء الولاية ومكنه من الفوز بالبراءة.

من هناك في صبراتة أصبحت تلك المحاكمة واحدة من أشهر المحاكمات في التاريخ القديم.

وكتبت في كتب ونسخت وانتشرت وبقيت ليومنا هذا متداولة، رد فيها على تهم متنوعة مفصلة، اتهمه خصومه فيها بالتحايل للحصول على مالها كونه فقيرا، واستعمال السحر، وشبهات حول فيما يتعلق بصنع بعض المواد، واستعماله للأسماك، وبعض الأدوات .. رد عليها كلها بصيغة بليغة، وحجج قوية متناسقة، من **بين كلامه في مرافعة صبراتة قوله :-**

" أمّـا الفصاحـة، فـإن لي فيهـا حظّـا، فـلا ينبغـي أن يُعـدّ ذلـك أمـرا غريبـا ولا مكروهـا، إذ عكفـت منـذ فجـر العمـر عـلى دراسـة الأدب عـلى أبـرز رجالـه، مزدريـا في سـبيل ذلـك كلّ مـلاذّ الحيـاة الأخـرى.
ثـمّ إنّـه عـاب عـليّ كذلـك الفقـر، وهـي تهمـة أقبلهـا مـسرورا بـل وأحـبّ إعلانهـا أمـام المـلإ، أقـول إنّ الفقـر كان عـبر القـرون الماضيـة مؤسّـس كلّ المدائـن ومبتكـر كلّ الفنـون، خِلـوا مـن أيّ عيـب وافيـا لحـظّ مـن كلّ مجـد، محـلّ ثنـاء وإجـلال لـدى كلّ الأمـم. الفقـر هـذا عينـه هـو الـذي كان عنـد اليونـان اسـتقامة في أرسـتيدس وحلـما في فوكيـون وبأسـا في إيبامِنُنْـداس وحكمـة في سـقراط وفصاحـة في هومـيروس وهـو الـذي وضع الأسـس لسـلطان الشّـعب الرّومـانيّ، واعترافـا بفضلـه مـازال يقـدّم حتّـى اليـوم القرابـين للآلهـة الخالديـن في قـدح وجفنـة مـن الفخّـار. "
وفي نهايـة المرافعـة لخـص بإيجـاز وبلاغـة كامـل التهـم ورده عليهـا في كلمتـين لـكل تهمـة قائـلا :-
"فـماذا يـأتي تُـرى بعـد ذلـك ؟ هـات إذن واحـدة مـن تلـك الجرائـم العديـدة، هـات واحـدة ظنّيّـة أو غامضـة تمامـا مـن تلـك الجرائـم البيّنـة! هأنـذا أردّ عـلى كلّ واحـدة مـن تهمهـم بكلمتـين لا أكثر فعُـدّ :
"تلمّع أسنانك !"- اغفر نظافتي.
"تتأمّل المرآة !"– واجب الفيلسوف.
"تنظم شعرا !"– عمل مباح.
"تدرس الأسماك !"– يعلّمني أرسطوطاليس.
"تقدّس خشبة!"– يوصيني به أفلاطون.
"تزوّجتَ امرأة!"– تفتضيني القوانين.
"تكبرك سنّا!"– يحصل كثيرا.
"تنشُد المال!"– خذ الصّداق، تذكّر الهبة، اقرأ الوصيّة.


.L. ucij Apuleij madaurentis phi platonici metamorphoseos liber de Asino aureo
[illegible]Tego tibi sermōe isto milesio uarias fabulas cōserā: aauresq; tuas beniuolas: lepido susurro permulceā: modo si papyrum egyptiam: argutia nilotici calami inscriptā: non spreueris inspicere: figuras fortunasq; hominū in alias imagines cōuersas: & in se rursū mutuo nexu refectas: ut mireris: exordior. Quis ille: paucis accipe. Hymetos Attica: & Isthmos Ephirea: & Tenaros spartiaca glebe felices: eternū libris felicioribus: credite: mea uetus psapia ē. Ibi inq̄ in Atthide: pmis puericie stipēdiis merui. Mox in urbe latia aduēa: studiorum quiritium: indigenam sermonem: erumnali labore: nullo magistro preeūte: aggressus excolui. En ecce prefamur ueniam. si quid exotici ac forensis sermonis rudis locutor offendero. Iā hec qdem ipsa uocis immutatio: desultorie scientie stilo: quem accessimus: respondet. Fabulam grecanicam incipimus. lector intende: letaberis. Thessaliam: nam & illic originis materne nostre fundamenta a plutarcho illo inclito: ac mox Sexto philosopho nepote eius pdita: gloriā nobis faciūt: eam thessaliam ex negotio petebam. Postq̄ ardua montium: et lubrica uallium: & roscida cespitum: & glebosa camporum emersi: me equo indigena: peralbo uehēs: iam eo quoq; admodū fesso: ut etiam fatigationem sedentariam: incessus uegetatōe discuterē: in pedes desilio. equi sudorem: et frontem curiose exfrico. auris remulceo. frenos detraho. in gradum lenem sensim pducbo: quoad lassitudinis incommodū: alui solitū: ac naturale presidiū eliq̄ret. Ac dum isientaculum ambulatoriū: prataq; preterit: ore in latus detorto pronus adlectat: duobus comitum: qui forte paululum processerāt: tertiū me facio. & dū ausculto: qd sermōis agitaret? Alter exorto cachinno: Parce inqt ī uerba ista: hec tā absurda: tamq; immania mentiendo. Isto accepto: sitior alioquin nouitatis: immo uero inq̄ impertite sermonem: nō quidem curiosum: sed qui uelim scire uel cuncta: uel certe plurima. simul iugi quod insurgimus asperitudinem: fabularū lepida iucunditas leuigabit. At ille qui ceperat. ne inquit istud mēdaciū tam uerū est? q̄ siqs uelit dicere: magico susurramine amnes agiles reuerti. mare pigrū colligari. uētos inanimes expirare. solē inbiberi. lunā despumari.

مخطوطات تضمنت نسخا من بعض أعمال لوسيوس أبوليوس

إن رددتُ كلّ تهمهـم باسـتفاضة، إن دحضـتُ كلّ الافـتراءات، إن بـرّأت نفـسي لا فقـط مـن كلّالتّهـم، بـل وكذلـك مـن كلّ مـا يشـاع عنّـي ثمّـا واغتيابـا، إن لم أُنقـص أبـدا شرف الفلسـفة الـذي هـو عنـدي أفضـل مـن سـلامتي، بـل صنتـه بحـرص أينـما كنـتُ، ماسـكا إيّـاه بسـبع ريشـات كـما يقـال، إن كان ذلـك كـما أقـول فبوسـعي أن أنتظـر مطمئنّـا حكمـك بإجـلال وبـلا وجـل مـن سـلطتك فـلأن يدينـني والٍ أهـون في اعتقـادي وأقـلّ رهبـة مـن أن يسـتهجنني رجـل بمثـل فضلـك واسـتقامتك .. والسّـلام".
وعـن تاريـخ وقـوع مرافعـة صبراتـة وأهميتهـا يقـول الأسـتاذ "عمـار الجـلاصي" مترجـم الكتـاب:-
"لا توجـد قرائـن تاريخيّـة خارجيّـة عـلى وقـوع هـذه المحاكمـة التـي ربّمـا تمّـت في 159/158 كـما يُسـتنتج مـن بعـض القرائـن، وللنّـصّ بجانـب أهمّيّتـه الأدبيّـة ومـا يتضمّـن مـن معلومـات حـول سـيرة حيـاة أبوليـوس وشـخصيّته، قيمـة تاريخيّـة هامّـة فهـو يفيـد في مجـالات كدراسـة الأسرة والقانـون والسّـحر وأديـان المسـارّة في العـالم الرّومـانيّ ومـدى التّأثـير الرّومـانيّ واسـتمرار بعـض عنـاصر الثّقافـة الفينيقيّـة في إفريقيـا بعـد ثلاثـة قـرون مـن ضمّهـا لرومـا".

تحولت "مرافعة صبراتة" من جلسة محاكمة إلى كتاب لازال يطبع إلى يومنا هذا كأحد أقدم كتب الأدب العالمي.